

هل ينتظر الكاتب خريف العمر ليكتب رواية مؤثرة

روايات كتبها شباب تخرج قراءها من سكينه اليقين إلى جحيم الشك



الرواية لا علاقة لها بعمر كاتبها (لوحة للفنان جلال بن عبدالله)

يحمل الكثير من الروايات هاجسا كبيرا بتفكيك السرديات الكبرى والميثولوجيات وينحت سردية خاصة تكون ما يشبه المرجع الفكري والجمالي أو حتى المتحفي للقراء، لكن هذا يتطلب بديها أن يكتب الرواية بما هي "أدب حكمة" أناس في خريف العمر، وهذا ليس صحيحا مطلقا.

شرف الدين ماجدولين
كاتب مغربي

قد تكون الرواية منذورة لصياغة حكمة عن مكابدة العيش، بما أنها تتعلق بأقدار البدايات والمصائر، رؤى لا تتأني في البغاة ظاهريا، إذ تكتب الرواية برغبة لأعجبه لفهم ما مضى، وما يحصل في جراب العمر من خطوب وتحولات، فتتجلى بما هي تامل في النوازع الإنسانية للنشر والفضيلة، ومساعدة للمعتقدات والأفكار المترسلة عبر التاريخ عن الكون والإنسان.

روايات كتبت بتفاصيل شديدة الدلالة تجعل قارئ الرواية وناقدها والمتأمل لعواملها يراجعون مبدأ اقتراها بخريف العمر

وعادة ما نعتش في الأعمال الروائية التي نُنعت بالظليعية على مقومات تبديل القناعات، بحيث يمكن أن تخرج بعد قراءتها من سكينه اليقين إلى جحيم الشك، ذلك ما تحققه نصوص من قبيل "الغريب" للبير كامو، ورواية "الأحمر والأسود" لستاندال، و"الإنجيل يرويه يسوع المسيح" لجوزيه ساراماغو، وغيرها من الروايات الخالدة، إنها الخاصة التي تجعل الرواية تمثل بما هي مرجعة لجوهر الإيمان وسعي إلى سرديات نقيضة.

خريف قبل الخريف

المفترض أن تكتب الروايات المنطوية على مراجعات جذرية بخصوص العقيدة والوجود في سن متقدمة، لاسيما أن روايات الأخرى اختاروا التعبير الروائي في سن ما بعد الأربعين. بيد أن تفاصيل شديدة الدلالة تجعل قارئ الرواية وناقدها والمتأمل لعواملها يراجعون مبدأ اقتراها بخريف العمر، حيث لم تكن رواية "الغريب"

القاعدة في سياق محفوف بالانتباسات والأقدار المتضاربة والمتنافية، فحين نشر فوكنر روايته "المحراب"، وهي من أكثر النصوص الروائية عمقا وفتنة على امتداد تاريخ الرواية الحديث، كان في الرابعة والثلاثين من العمر، دون أمجاد تذكّر، ولا أحداث أو مغامرات فارقة، بعد مسيرة خاملة في إحدى مدن ولاية المسيسيبي الأميركية، كانت حياة هادئة لا تليق بكتابت روايات الرعب والصخب التي أصدر تبعها.

لقد كتب "المحراب" بنهم ظاهر إلى الحياة، حيث كان القصد تدبج نص مثير وصاعق يفتن القراء، وخلال ثلاثة أسابيع كان قد أكمل أحد أكثر أعماله عمقا ونضجا إنسانيا، ولم يكن هذا النص الروائي، الذي بات من أشهر الكلاسيكيات الروائية، إلا حكاية فطاعة النفس البشرية واجترائها على المحرمات، كانت الرواية تنضح بحكمة خريف العمر، تلك التي وسعها أندري مالرو حين قدمها للجمهور الفرنسي سنة 1933 بقوله "إنها إقحام للرواية البوليسية في التراجم الإغريقية".

لكن لنعد إلى تجربة ساراماغو نفسها حيث يتجلى العمل بما هو صيغة نبوية للإنجيل المقدس فيشخص يسوع في بشرية كما يمثل الرب والشيطان بنسخ إنساني يتحاوران لتفسير ما جرى من حروب باسم العقيدة.

لقد كتبت الرواية بثقل السنوات النافذة من شبكة العين العتيقة المطلة من شرفة السبعين على الماضي الذي عبر فيه الكاتب العقائد الدينية والسياسية والنضالية قبل أن يستقر على العقيدة الروائية التي جعلته ينهي سرديته بهذا المقطع المأساوي "بدأ يسوع المسيح يموت ببطء، وبدأت الحياة تنحسر منه، عندما فتحت أبواب السماء فجأة على مصراعيها وظهر الرب... دوت كلماته في أرجاء الأرض، هذا هو ابني الحبيب الذي يفرحني، أدرك المسيح عندئذ أنه خدع، كما أن الحصل الذي يقاد للمذبح للتضحية به كان مخدوعا، وأن حياته قد رسم لها أن تصوت منذ البداية، متذكرا أن نهر الدم والمعاناة التي ستتدفق من خاصرته وتغرق الكرة الأرضية، صاح نحو السماء المفتوحة حيث يمكن رؤية الرب وهو يبتسم، أيها البشر، اغفروا له".

الصادرة سنة 1924 للبير كامو، وهو في سن التاسعة والعشرين من عمره، إلا مثلا على ارتباك هذه القاعدة وثباتها، والتي قد يكون رسخها صدور أعمال من قبيل "الإنجيل يرويه يسوع المسيح" في التاسعة والستين من عمر صاحبه، أي في غمار الخريف الزاهب بعفوان الجسد والذهن.

وجدير بالذكر في هذا السياق أن الروائي الفرنسي أندري مالرو لم يكن يتجاوز سن الثالثة والثلاثين حين حصل على جائزة الغونكور عن عمله "الشرط الإنساني"، وهي الرواية المتحفية عن جوهر الإرادة المجافية للشعر، التي تغدو مكبلة للواجب، وفي تناقض مع مبدأ مكابدة العيش. لقد كان مالرو مقاتلا في حروب عدة، من الحربين العالميتين الأولى والثانية إلى الحرب الأهلية الإسبانية، حيث تطوع فيها ضمن صفوف الجمهوريين، وكانت التجربة أكبر من السنوات التي تحول فيها إلى مقاتل وشاهد، ثم مناضل مناضل للاستعمار ومقاوم للغزاة والفاشيين.

الثقل والعمق

استحضر رواية "الشرط الإنساني" جنبا إلى جنب مع "رجال في الشمس" لغسبون كنفاني التي لم تتجاوز عتبات الشرط الإنساني إذ ارتكزت مدارات التخيل فيها على قاعدة استسلام الإنسان إلى قدره بتفاهة ودون مقاومة، لقد كتبها كنفاني وهو في السابعة والعشرين من عمره، وهو المناضل والفلسطيني الذي عاش معترك الثورة وتغيرياتها المترسلة، قبل أن يقضي في بفاعته البهية شهيدا، كانت الرؤية مررة أخرى بعيدة عن خريف العمر، إنما ناضجة، وقادمة من قعر الزمن والذاكرة، لفتحها قسوة المنابذ والمنافي والحروب.

هل قدر الرواية أن تعوض فيها حكمة خريف العمر، قدر الوجود على شفير الموت، وعلى حافة الخطر؛ لا تستقيم هذه

المكتبات الخاصة ليست فقط محلات لبيع الكتب

الاختلافات في الاستهلاك واكتساب المعرفة؛ وغير محاولات الإجابة عن هذه التساؤلات يصحب الكاتب قارقه في رحلة سياحية مميزة في كتابه "زيارة لمكتبات العالم" الذي صدر في نسخة عربية مؤخرا عن "العربي للطبع والنشر - القاهرة" بترجمة ريم داوود. في المقدمة يذكر المؤلف أن كتابه سيحدث عن القراءة العادية بأسلوب يبعث على الإرتياح، ثم يناقش التناقضات التي تثير الإنزعاج، فيعيد تركيب التقاليد المعتادة، ويتعامل مع الكتب كحاجات، والمكتبات كمواقع للتنقيب عن الآثار، أو كدكاكين للضياع المستعملة أو كارتشيف، وحالة مكانية تستمد قوتها من أهمية التراث ضد تآكل الماضي والذاكرة، ويعرض رؤيته للكتب باعتبارها حركات مقاومة تكافح من أجل عدم احتلال مكانها في تاريخ المعرفة البشرية، ويشبه مكتبات بيع الكتب والمكتبات العامة بتوأمي روح أو وجهي الإله يانوس، وهو في الميثولوجيا الرومانية إله اللبوابات والممرات، يتم تصويره بوجهين لأنه ينظر إلى المستقبل وإلى الماضي معا، كاريون أيضا يتطلع إلى مستقبل المكتبات في العصر الرقمي، ويتفقد في ماضيها، ويقر بأن مكتبة الإسكندرية هي الأولى في التاريخ التي اعتمدت على نظام الفهرسة، ويرجح أن فكرتها جاءت من المكتبة الخاصة بآرسطو، ويرى أن المقارنة بين المجموعات الخاصة والعامة وبين مكتبات بيع الكتب والمكتبات العامة مقاربة قديمة قدم الحضارة نفسها.

القاهرة - "العالم مكتبة والمكتبة عالم"، جملة طوباوية من كلمتين تجعل كل منهما مرادفة للأخرى، وتنفك من الغلاف الذي تنصده إلى متن الكتاب الذي يبدا بالتاكيد على أن "كل مكتبة لبيع الكتب نسخة مكثفة من العالم. إن ما يربط بلدك ولغته بالمناطق الأخرى التي تتكلم لغات مختلفة، ليس خطوط الطيران والرحلات، وإنما الممرات الممتدة بين الكتب".

هكذا ينظر الإسباني خورخي كاريون إلى المكتبة باعتبارها خارطة بداخلها جو متميز من الحرية، يتباطأ فيها الزمن، وتصبح السياحة نوعا مختلفا من القراءة. ويوسع كاريون عالم بيع الكتب ليصبح مجالاً عالمياً شديداً الارتباط. يبدأ تناوله من المنطقة المحلية لكل مؤسسة، ثم ينتقل من المحلي إلى الأبعد: الكون.

الكتب حركات مقاومة تكافح من أجل عدم احتلال مكانها في تاريخ المعرفة البشرية وهذا ما تثبته المكتبات

ومن ثم فإن قصته تعتمد على الإقليمية وتختار قراءة شبيهة موضعية للمكتبة التي يمكن من خلالها طرح أسئلة مثل: كيف تتداخل هذه المساحات في البناء التاريخي للثقافة؟ ما هو الدور الذي تلعبه في المجتمع الجماليات أو عادات القراءة؟ هل يمكن أن تشكل بعض

شو، لكن من المؤسف أن يفقر هذا النوع من المكتبات إلى الوثائق التي تؤرخ له، لذلك وجد كاريون نفسه مضطرا إلى الرجوع للصور الفوتوغرافية والبطاقات البريدية المصورة، فضلا عن الاستعانة بالنصوص الأدبية والمقالات.

ويرجح كاريون أن تكون مكتبة "ديليمن" في باريس هي أقدم مكتبات هذا النوع، إذ فتحت أبوابها للجمهور داخل مسرح الكوميدي فرانسيز عام 1700، أما في بريطانيا، فالأقدم مكتبة "بي.اندجي. ويلز" في مدينة وينشستر، وبحسب الكتاب "فرعها الوحيد يؤكد استقلاليتها الواضحة، وتم الاحتفاظ بإيصالات شراء تعود إلى عام 1729، ويرجح أن نشاط الكتب في المقر الواقع في كوليج ستريت لم يتوقف منذ خمسينات القرن الثامن عشر".

كذلك يشير إلى بعض المكتبات التي تمّ تخليدها في نصوص أدبية، ومنها مكتبة ليوناردو دافينشي، ويشير إلى القصيدة التي أسماها ماركيسو كاتوندا مكتبة، وصف فيها الممر المؤدي إلى الطابق الأرضي من مبنى ماركيز دي هارفيل. ومن الأشياء الطريفة التي يذكرها خورخي أنه في زيارة له إلى فنزويلا، قام جندي بشم ثلاثة وعشرين كتابا كان يحملها كاريون في حقائبه، وسخر ذلك بقوله "إنهم صاروا يمزجون المخدرات بالصمغ المستخدم في لصق أوراق من أغلفة الكتب".

تمديد فترة المشاركة في جائزة البحرين للكتاب

والكتابة عبر هذه الجائزة التي تركز على تشجيع الأعمال الأدبية والعلمية والمؤلفات والمنشورات بمختلف أنواعها، إذ ترصد قوائم في مواضع محددة كل عام، بناء على حقل معين يتم انتقاؤه في كل دورة للجائزة، كما يتم فرز الكتب الواردة لاختيار الأكثر جدارة منها للفوز من خلال لجنة تحكيم تركز على دراسة الأعمال والمؤلفات المقدمة.

ويذكر أنه في العام 2011 وبمناسبة اليوم العالمي للكتاب أطلقت وزارة الثقافة آنذاك جائزة البحرين للكتاب، وفي شروطها أنه يحق لكل كاتب أو مؤلف عربي المشاركة بالجائزة (بحسب موضوع كل سنة والدولة المحددة)، على أن تخصص كل دورة لحل معين تختاره الهيئة الاستشارية، وعلى الكاتب الالتزام بالحقل الخاص بالمقدمة، كما يشترط للتقدم للجائزة ألا يتجاوز العمر الزمني للعمل المقدم سنتين من تاريخ معرض البحرين الدولي للكتاب الذي يُعلن خلاله اسم الفائز، وأن يكون العمل ملتزما بأصول وقواعد البحث العلمي ومناهج الثقافة وأخلاقياته، وأن يكون أصيلا ومبتكرا، ويأتي بأفكار ورؤى وبيانات جديدة، بالإضافة إلى ألا يكون قد سبق له الفوز بأي جائزة عربية، وعلى المؤلف أن يقدم إنتاجه منشورا في كتاب باللغة العربية (خمس نسخ من الكتاب).

المنامة - أعلنت هيئة البحرين للثقافة والآثار تمديد باب التسجيل للمشاركة في جائزة البحرين للكتاب لعام 2020 وذلك حتى نهاية شهر يناير القادم، حيث تُسلم الجائزة ضمن فعاليات معرض البحرين الدولي للكتاب الذي يقام في شهر مارس من العام المقبل والذي تصل عليه دولة الكويت ضيفة شرف.

وتأتي هذه النسخة من الجائزة مخصصة لمشاركات كتاب وباحثي دولة الكويت تحت عنوان "عمل إبداعي في الشعر أو الرواية".

جائزة البحرين للكتاب 2020 لكتاب وباحثي دولة الكويت ضيفة شرف معرض البحرين الدولي للكتاب العام المقبل

ونوهت هيئة الثقافة إلى أن الأعمال المشاركة من الكويت عليها أن تُسلم إلى سفارة البحرين في العاصمة الكويتية في موعد أقصاه نهاية شهر يناير 2020، حيث سيتم الإعلان عن الفائز بالجائزة ضمن فعاليات معرض البحرين الدولي التاسع عشر للكتاب. وأكدت هيئة البحرين للثقافة والآثار من خلال دعم جائزة البحرين للكتاب على التزامها بتعزيز مكانة الأدب



ويصدر خورخي كاريون، وهو الروائي والباحث الحاصل على الدكتوراه في الإنسانيات، تاريخ مكتبات بيع الكتب بشكل خاص وليس المكتبات العامة، ويرجع اهتمامه بها لكونها "تفتقر إلى الاستمرارية والدعم المؤسسي، ومع ذلك تتميز بقدرتها على التجاوب الجريء مع الجمهور وتلبية احتياجاته، وتمتدح بالتالي بنوع من الحرية، ولكنها غالبا ما تعاني من ندرة اهتمام الباحثين بها إلى أن ينتهي وجودها الفعلي، وتتحوّل مع الوقت إلى أسطورة، مثل ساحة كاترنايكية القديس بولس بلندن، والتي كانت تضم ثلاثين مكتبة، منها 'ذا باروت' التي كان صاحبها أحد ناشري ويليام شكسبير لكن أحدا لا يهتم بدراستها، وتغفل المكتبات السياحية ذكراها، على العكس من تاريخ المكتبات العامة الذي يمكن سرده بسهولة وبمفاتيح دقيقة، وفقا للحدود الجغرافية التي حددها اتفاقيات جغرافية معروفة، ومن خلال السجلات الأرشيفية لكل مكتبة".

ومن بين المكتبات التي يراها أسطورية يشير كاريون إلى مكتبة "دي ماريني" التي تغير اسمها في ما بعد لتحمل اسم منشئها كاسيلا، وقد ورثها عنه ابنه فرانثيسكو الذي تعامل مع المكتبة كمكان لاستقبال ضيوفه، ودعا إليها في مطلع القرن الماضي إهداء كتاب مثل إدواردو دي فيليببي وبول فاليري وآناتول فرانس وجورج برنارد